ملامح التفسير الجغرافي للتاريخ عند المسعودي

❑ الدكتور هادي حسين حمود

يعتبر أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ - ٩٥٧م) المؤرخ العربي العراقي من ظواهر التراث العربي الإسلامي اللامعة في القرن الرابع الهجري، التي كان لها دورها المميز في رفد الثقافة العربية الإسلامية بمجموعة قيمة من الكتب، التي تناولت موضوعات تاريخية وجغرافية وعمرانية وفلسفية وفكرية متنوعة، كما يعتبر كتابه الموسوم بـ (مروج الذهب ومعادن الجوهر) أحد الكتب الثلاثة العظيمة التي ألفت في التاريخ العالمي كما يرى روزنثال[1].

وعلى الرغم من ضياع الأغلبية العظمى من مؤلفات هذا المؤرخ والمفكر العظيم؛ فإن الباحث يستطيع أن يتلمس من خلال كتابيه الباقيين: (مروج الذهب) و(التنبيه والأشراف) جوانب كثيرة من فكر هذا المؤرخ، ومنهجه في البحث، وطريقته في العرض التاريخي.

وعلى الرغم من ظهور كتب ودراسات متنوعة تناولت جوانب متعددة في فكر المسعودي، منها بحث الدكتور جواد علي (موارد تاريخ المسعودي)، وكتابي الموسوم بـ (منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية) فإنه لم تسلط، وبشكل واضح، الأضواء الكافية لإيضاح محاولاته في التفسير الجغرافي لأحداث التاريخ.

الحق أننا لا نستطيع أن نعد المسعودي من رواد التفسير الجغرافي للتاريخ كفلسفة كانت قد تبلورت، بشكلها الواضح، في القرن التاسع عشر أو قبله، أو

(١) روزنثال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلي، (بغداد، ١٩٦٣)، ص١٨٧.

أننا نستطيع أن نقارنه بابن خلدون، الذي يبدو أن نظريته في التفسير الجغرافي للتاريخ قد توضحت بشكل أفضل، ولكننا مع ذلك نلمس ذلك الاتجاه واضحاً في كثير من النصوص التي أوردها المسعودي في مجال أحاديثه عن الأقاليم الجغرافية والأمم التي سكنتها، فقد أشار إلى كثير من التأثيرات البيئية على سكان المناطق المختلفة في العالم من النواحي البايولوجية والأخلاقية مع الإشارة، أحياناً، إلى تأثير ذلك على تاريخها.

ومع كل ذلك فإن ما أورده المسعودي بصدد ذلك، كما أرى، لا يكون بأي حال من الأحوال فلسفة واضحة المعالم، أو تفسيراً ينطبق على عموم التاريخ.

لقد لفتت أنظار عدد من الباحثين آراء المسعودي المشار إليها فرأوا أن الرجل كان من رواد التفسير الجغرافي للتاريخ في العصور الوسطى، وقد أشار إلى ذلك الدكتور نوري جعفر في كتابه (التاريخ مجاله وفلسفته) خلال حديثه عن التفسير الجغرافي للتاريخ، وأورد الفكرة نفسها الأستاذ (فرانز روزنتال) خلال حديثه عن إسهام الجغرافية في الدراسات التاريخية عند العرب وهو يقول بصدد ذلك: (إن المسعودي فيما نعلم أول من جمع بين التاريخ والجغرافية العلمية بأسلوب رائع)[١]. ويقول الأستاذ (علي أدهم): إن من (طليعة مؤرخي الإسلام الذين يشبهون هيرودوت في الجمع بين التاريخ والجغرافية المؤرخ الشهير... المسعودي فهو مؤرخ وإخباري من الطراز الأول، وهو في الوقت نفسه جغرافي راسخ القدم... وقد سبق المسعودي بعض مؤرخي الإسلام في الجمع بين معرفة التاريخ والتمكن من الجغرافية...)[٢]. ويقول أيضاً: (ولكن ميزة المسعودي أن الجغرافي... يصاحب على الدوام المؤرخ، فهو ينظر إلى الأمور بعين المؤرخ، ويتأملها في الوقت نفسه بلواحظ الجغرافي...)[٣].

لعل أشهر النصوص التي أوردها المسعودي بصدد تفسيراته الجغرافية لأحداث التاريخ، وأكثرها وضوحاً قوله: (وقد ذكرنا في كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهوائها في حيوانها من الناطقين، وغيرهم... كتأثير أرض الترك في وجوههم وصغر أعينهم... وأرض يأجوج

---

(١) المصدر السابق، ص١٥١.
(٢) بعض مؤرخي الإسلام، (القاهرة لا. ت) ص٥١.
(٣) المصدر السابق، ص٥٢.

ومأجوج في صورهم، وغير ذلك مما إذا تبينه ذوو المعرفة في سكان الأرض من المشرق والمغرب وجدوه على ما ذكرنا)[١] وقوله (وبقاع الأرض مختلفة بحسب اختلاف الطبائع وما تؤثره فيها الأجسام السمائية من النيرين، فغلب طبع كل أرض على سكانها...)[٢].

لقد أعطى المسعودي أهمية بالغة للإقليم الرابع من أقاليم الأرض، وهو الإقليم الذي يقع فيه العراق، باعتباره نموذجاً للأقاليم التي لها أثرها الواضح في حياة الناس وحضارتهم؛ لكونه إقليما يتصف باعتدال المناخ[٣]، ولذلك فقد (اعتدلت ألوان أهله واقتدرت أجسامهم، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة، وسواد الحبشة، وغلظ البربر ومن جفا من الأمم، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار، وكما اعتدلوا في الجبلة كذلك لطفوا في الفطنة، والتمسك بمحاسن الأمور...)[٤].

وتحدث المسعودي كذلك عن أثر الصحراء، ذات الهواء النقي، في حياة العرب فقال: (فآثرت العرب سكنى البوادي والحلول في البيداء، فهم أقوى الناس همماً، وأشدهم أحلاماً، وأصحهم أجساماً، وأعزهم جاراً، وأحماهم ذماراً، وأفضلهم جواراً، وأجودهم فطناً، كما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء...)[٥].

وقد أورد المسعودي رسالة مطولة بعث بها أحد الحكماء، كما يقول، إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) جواباً على رسالة تلقاها من الخليفة يطلب فيها من الحكيم أن يصف له (المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والأهوية في

---

(١) المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، تحقيق يوسف اسعد داغر، (بيروت، ١٩٧٣)، ص١٧٢.
(٢) المسعودي، التنبيه والأشراف، تحقي عبد الله إسماعيل الصاري، (القاهرة/ ١٩٣٨)، ص٢٧.
(٣) راجع عن الأقليم الرابع، التنبيه والأشراف، ص٣٢ – ٤٥، مروج الذهب ٣٨/٢ – ٣٩.
(٤) مروج الذهب ٣٩/٢.
(٥) المصدر السابق ٩٧/٢.

سكانها...)[١] وفي الرسالة وصف دقيق وواضح للأثر الجغرافي في طبائع الناس، وفي تاريخهم وعاداتهم، وعلى الرغم من أن الرسالة، التي تقع في أربع صفحات، منسوبة إلى حكيم مجهول، فإنها تمثل، كما أرى، إيمان المسعودي ورأيه بالأثر الجغرافي في صياغة أحداث التاريخ[٢].

وحينما تحدث المسعودي عن أرباع الأرض بين بوضوح أثر العوامل الجغرافية في عادات وتقاليد وتواريخ الأمم التي سكنت الأرباع المشار إليها (فالربع الشرقي، وهو ما تسافل عن خط الجنوب والشمال إلى المشرق، فهو ربع مذكر يدل على طول الأعمار، وطول مدة الملك والتذكير وعزة الأنفس وقلة كتمان السر وإظهار الأمور والمباهاة بها، وما لحق بذلك، وذلك لطباع الشمس وعلمهم بالأخبار والتواريخ والسير والسياسات والنجوم)[٣].

(وأما أهل الربع الغربي، فإن الغالب عليه التأنيث إلا ما استولت عليه الكواكب المذكرة...، وأهله أهل كتمان للسر وتدين وتأله، وكثرة انقياد إلى الآراء والنحل، وما لحق بهذه المعاني...)[٤].

(وأما أهل الربع الشمالي، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال، كالصقالبة والإفرنج ومن جاورهم من الأمم، فان سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرد وتواترت الثلوج عندهم والجليد... فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم، وتوعرت أخلاقهم وتبلدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم...)[٥]. وكلما أوغل أولئك القوم في الشمال غلبت عليهم (... الغباوة والجفاء والبهائمية، وتزايد ذلك فيهم في الأبعد إلى الشمال، وكذلك من كان من الترك واغلاً في الشمال...)[٦].

---

(١) أيضاً ٢/٣٤.
(٢) انظر نص الرسالة في مروج الذهب ج٢، ص٣٤ – ٣٨.
(٣) التنبيه والأشراف، ص٢١.
(٤) المصدر السابق/ ص٢١.
(٥) أيضاً، ص٢٢.
(٦) أيضاً، ص٢٢.

أما الذين هم تحت خط الاستواء (... كالزنج وسائر الأحابش ... فانهم بخلاف تلك الحال... فاسودت ألوانهم واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم...)[١].

وحينما يتحدث المسعودي عن بلاد: (التبت) يشير إلى خصائص الإقليم الجغرافية وأثر ذلك في حياة الناس فيقول: (ولبلاد التبت خواص عجيبة في هوائها، وسهلها ومائها وجبالها، ولا يزال الإنسان أبداً ضاحكاً فرحاً مسروراً، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار... وهي بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره، ولا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام، وفي أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على استعمال الملاهي... وأنواع إيقاع الرقص....)[٢].

هذه أهم النصوص التي أوردها المسعودي في كتابيه الباقيين: (مروج الذهب) و(التنبيه والأشراف)، ولا شك أن كثيراً من النصوص والأدلة على ما ذهب إليه قد ضاعت بسبب ضياع كتبه لا سيما كتابه (القضايا والتجارب).

---

(١) أيضاً، ص٢٢.

(٢) مروج الذهب ١/١٧٨.